آليات الانسجام النصّي بين النّظرية و التّطبيق- دراسة في جهود الزّركشي -

Mechanisms of Textual Harmony Between Theory and Practice - A Study in Zarkashi's Efforts

طالب دكتوراه : غالي عبد القادر

اسم المشرف: د. بن عائشة حسين.

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

البريد الالكتروني: ghaliabd580@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/17 تاريخ القبول:2020/01/30 تاريخ النشر: 2020/06/17

الملخّص:

تحاول هذه الدّراسة بيان مفهوم الانسجام النصّي، و الّذي يتمثّل في ذلك التّرابط القائم ما بين الأفكار و المفاهيم في مستوى باطن النّص، فهو جزء من عملية فهم النّص، لأنّ القارئ هو الّذي يبني علاقاته أثناء قراءته للنّص، إذ يحتل الانسجام موقعا مركزيّا في الأبحاث و الدراسات التي تُعنى بتحليل النصوص، إذ تحكّمه آليات عديدة تجلّت في التطبيق على كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، لتبرهن على الوحدة النصّية للقرآن الكريم.

وخَلُصَت الدراسة إلى أنّ علوم القرآن بداية أصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النّص، و ذلك لاشتمالها على دراسة الانسجام، و السّياق و المناسبة، و هي قضايا جوهرية في لسانيات النّص.

الكلمات المفتاحية: الانسجام، النصّ، الزركشي، السيّاق، المناسبة.

Summary:

This study attempts to illustrate the concept of textual harmony, which is the interrelationship between ideas and concepts at the level of the text, it is part of the process of understanding the text, because it is the reader who builds relationships during reading the text, as harmony is central to research and Studies concerned with the analysis of texts, as governed by several mechanisms manifested in the application of the book of proof in the science of the Koran to Zarkashi, to demonstrate the textual unity of the Koran.

The study concluded that the Qur'anic sciences are a genuine beginning of what became known as text linguistics, because it includes the study of harmony, context and relevance, which are fundamental issues in the text linguistics.

Keywords: harmony, text, trimmings, context, occasion.

تمهيد:

ممّا لا يخفى على أيّ دارس، أنّ اللسانيات النصّية تعدّ من أحدث العلوم الحديثة الّتي أنتجتها اجتهادات اللّسانيين في مجال الدّراسات النّصّية في منتصف القرن العشرين، حيث تتكفّل بدراسة بنية النصوص و كيفيات اشتغالها، و ذلك من منطلق أنّ النّص ليس مجرد تتابع مجموعة من الجمل، و إنّما هو وحدة لغوية ميزتها الأساسية الاتّساق و الانسجام، أي أنّ اللّسانيات النصيّة تجاوزت حدود الجملة إلى بنية لغوية أكبر منها و هي النّص، الّذي هو عبارة "عن كلام متّصل ذو وحدة جليّة تنطوي على بداية و نهاية، و يتّسم بالتّماسك و التّرابط، و يتّسق مع سياق ثقافي عام أُنتج فيه، و ينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلّق بالعلاقات القائمة بين القارئ و الواقع من خلال اللّغة، و بين بداية النّص و خاتمته مراحل

من النمو القائم على التّفاعل الدّاخلي، و هذا التفاعل يؤدّي بالنّص إلى إحداث وظيفته التي تتمثّل في خلق التواصل بين منتج النصّ و متلقّيه"[1].

و عليه فالمهمّة الأساسية التي تسعى إلى تحقيقها لسانيات النّص هي بيان كيفيات التماسك النّصي و أشكاله بين الأجزاء المكوّنة للنّص إلى جانب وصف و تحليل الأبنية النّصية و استكشاف العلاقات التي تساهم في اتّساق النصوص و انسجامها.

و يمكن لنا في هذا المقام أن نلتقي مع اللساني صبحي إبراهيم الفقّي الّذي شغلته المعالجة النّصية، و يذكر لنا مهام لسانيات النّص حيث يرى بأنّها تتجلّى في: "إحصاء الأدوات و الروابط التي تسهم في التحليل، و يتحقّق هذا الأخير بإبراز دور تلك الروابط في تحقيق التّماسك النصّي مع الاهتمام بالسياق و التواصل" [2]. و هي أدوات متكاملة تعمل جميعا لتحقيق ذلك الترابط و التماسك النصّي.

و من هنا فإنّ لسانيات النص قد تمكّنت من تحديد العلاقات الّتي تربط بين الجمل و فقرات النصوص على مستويات مختلفة منها المعجمي و النحوي و الدّلالي، لأنّ هدفها هو تحديد الوسائل التي مكّنت من ربط الجمل و شكّلت منها وحدة دلاليّة متلاحمة الأجزاء.

و ما يهمّنا في هذا التحليل النصّي إنّما هو الانسجام و آلياته، الّذي يعنى بالعلاقات التي تربط أجزاء النّص لتجعل منه كلاّ موحّدا من حيث المفهوم و المضمون، غير أنّ الاهتمام بانسجام النّص هو وليد الدراسات الحديثة، فقد كان هناك عناية في الدراسات العربية الإسلامية القديمة بهذا المفهوم، فالملاحظ أنّ المشتغلين بعلوم القرآن و المفسّرين البلاغيين للقرآن الكريم كان لهم النصيب الأوفر في مقاربة النّص القرآني؛ و ذلك بتوظيف كثير من الآليات و الأدوات بغية استجلاء مظاهر انسجام النص القرآني و إعجازه.

و الإمام الزركشي (ت 794) واحد من هؤلاء المفسّرين الذين يوظّفون مصطلحات تنتمي إلى مجال الانسجام النصّي في كتابه البرهان في علوم القرآن، مثل: المناسبة بين الآيات، و كيفية الاتصال، و النظم، و التناسب، و السياق...إلخ.

و قبل الحديث عن آليات الانسجام النّصي عند الزركشي سنقف على أهم معاني الانسجام و قيمته.

مفهوم الانسجام:

أ- لغة:

ذكر (ابن منظور) في لسان العرب (مادة سجم): "سَجَمَتِ العين الدّمعَ و السحَابةُ الماء تَسْجُمُهُ سَجْمًا و سُجُومًا و سَجَمَانًا: و هو قطَران الدّمع و سَيَلانِه، قليلا كان أو كثيرا، و كذلك السّاجِمُ من المطر، و العرب تقول دَمْعٌ سَاجِمٌ. و انسجم الماء و الدمع، فهو مُنْسَجِمٌ إذا انْسَجَم أي اِنصَبّ" [3].

فإذا تَتَبَّعْنا معاني مادة (سَجَمَ) نجدها تتمحور حول معنى الانصباب و الصبّ و السيلان و استمرار المطر، و هذه المعاني تتّصل بمعنى الانسجام؛ حيث أنّ انصباب الماء، و سيلانه يتمّ في انسجام قطراته الّتي تكوّنه في كلّ متناغم، يقابل انصباب و انسجام معاني النّص و تجمعها لتشكّل وحدة دلالية.

ب- إصطلاحا:

يعدّ الانسجام من أهمّ المفاهيم التي وظّفتها لسانيات النّص؛ و ذلك في إطار الكشف عن التلاحم القائم بين الجمل و الفقرات و النّص بكامله، و قد تعدّدت الترجمات العربيّة لهذا المصطلح، بحيث كان لكلّ دارس مصطلحا معيّنا مقابل المصطلح الأجنبي (coherence) الإنجليزي، فمثلا نجد تمّام حسّان يترجمه إلى الالتحام، و محمّد مفتاح إلى التشاكل، و محمد خطابي اختار مصطلح الانسجام، و سعيد حسن بحيري إلى التّماسك، في حين استعمل الباحثان سعد مصلوح ومحمّد العبد مصطلح الحبك بدلا من الاصطلاحات السابقة...

حتّى و إن تعدّدت هذه المقابلات العربية لمصطلح (coherence) فإنّ مدلوله واحد، يتلخّص في كونه العلاقات الخطيّة الموجودة بين المعاني و المفاهيم و الأفكار في باطن النّص، حيث إنّنا قد نجد ظاهر النّص و كأنّه خال من أيّ رابط يربط بين أجزائه، فيستحيل - بفضل فعاليّة علاقات الانسجام – إلى نصّ متماسك، متلاحم الأجزاء.[4]

و الانسجام النصّي الذي نحن بصدد الحديث عنه يتمحور حول تلك العلاقات الّتي تربط معاني الجمل في النّص، أي أنّه يهتم بالروابط الدّلاليّة المتحقّقة في عالم النّص بخلاف الاتّساق الذي يهتم بالروابط الشكلية المتجسّدة في ظاهر النّص[5]. فهو بذلك يمثّل أساسا مهمّا في أسس الدّرس النّصي، لكونه يختص بالاستمرارية الدّلالية التي تتجلّى في منظومة المفاهيم و العلاقات الرابطة بينها، و لكن هذه العلاقات تحتاج من القارئ جهدا في التفسير و التأويل و توظيف ما في مخزونه من معلومات و مكتسبات سابقة من عالم النص للكشف عن آليات الانسجام النصّي و تحقيق عملية التواصل.

و ممّا تجدر الإشارة إليه، هو أنّ الانسجام أو التماسك الدّلالي يختصّ بالاستمرارية المتحقّقة في عالم النّص، و نعني بها الاستمرارية الدّلالية الّتي تتجلّى في منظومة المفاهيم (concepts) و العلاقات (Relations) الرابطة بين هذه المفاهيم[6]. و عنصر الانسجام من العناصر الرئيسة الّتي أشار إليها (فان دايك) (Van Diyk) فهو عبارة عن خاصيّة سيمانطيقية للخطاب قائمة على تأويل كلّ جملة مفردة متعلّقة بتأويل جملة أخرى"[7] ؛ حيث ركّز على الجانب المفهومي، هذا يعني أنّ الانسجام عنده عبارة عن مجموعة من العلاقات الدّلالية التي تربط الأجزاء الكبرى للنّص في بنيته العميقة.

فالانسجام يعتبر من أهم العناصر التكوينية للقيمة الجماليّة للخطاب في الأعمال الأدبيّة الكبرى، فهو يجسّد خاصية دلاليّة للخطاب تعتمد على فهم كلّ جملة مكوّنة للنّص في علاقاتها بما يفهم من الجمل الأخرى، فهو ليس خاصيّة تجريدية للأقوال و لكنّه ظاهرة تأويلية ديناميكيّة من الفهم المعرفي، تتدخّل فيها أنواع عديدة من المعارف الذّاتيّة. [8] و انطلاقا من هذا التصور فإن القارئ في هذه الحالة

يوظّف المرتكز الأساس الذي يعتمد عليه في تحقيق الانسجام النصّي من خلال فعل القراءة المراعى للآليات المكوّنة لهذه البنية داخل النّص.

و أشار محمّد خطابي إلى أنّ الانسجام أعمّ من الاتّساق، كما أنّه يغدو أعمق منه، بحيث يتطلب بناء الانسجام من المتلقي، صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفيّة التي تنظّم النّص و تولّده، أي تجاوز المتحقّق فعلا (أو غير المتحقّق) أي الاتّساق إلى الكامن و هو الانسجام[9]. و من هنا فإنّ شرح محمد خطابي للانسجام لا يقتصر على المستوى السطحي أو الشّكلي للنّص، و إنّما يتعدّاه إلى علاقات خفيّة قائمة داخل النّص المراد دراسته، حيث يهتم بترابط المفاهيم و العلاقات الدلاليّة المتحقّقة داخله.

و نخلص من ذلك إلى أنّ الانسجام النصّي له تصورات و مفاهيم متنوعة تبعا لتنوّع توجّهات الدّارسين و لكن يمكن أن تعتبره ذلك التماسك و الترابط الدّلالي الذي يتحقّق على مستوى المعاني و الأفكار الواردة فيه؛ و ذلك بالكشف عن التلاحم القائم بين الجمل و الفقرات و النّص بكامله، كما يرتكز الانسجام على علاقات داخلية خفيّة و عناصر مقاميّة متعالقة يتمّ من خلالها فهم النّص، و الّتي نكتشفها من خلال معارفنا السابقة، و كذا سياقات النّص المختلفة.

قيمة الانسجام النصّي:

إنّ الانسجام النصّي من أهم المقترحات الّتي قدّمتها لسانيات النّص، في الكشف عن التلاحم و الترابط الدّلالي الموجود بين أجزاء النّص؛ فهو يمثّل تلك الآليات التي تتجاوز المستوى السطحي إلى مستوى مجموعة المفاهيم الرابطة بين مكوّنات النّص، إذ يحتلّ موقعا مركزيا في الأبحاث و الدراسات النّصيّة التي تعنى بتحليل النصوص، لأنّه يهدف إلى الربط بين أجزاء النصّ و من ثمّ فهم المعنى عبر رؤية متماسكة.

و من هنا يتّضح لنا أنّ الانسجام هو جزء من عملية فهم النص، لأنّ القارئ عندما يعالج النصّ يبني تمثيلا للمعلومات التي يحتويها النّص في ذهنه، و المظهر الأساس لهذا التمثيل المعرفي هو أن يدمج القضايا المفردة المعبّر عنها في النّص في كلّ أكبر، و الانسجام بذلك شيء يقيمه القارئ في عملية قراءة نص مترابط، اعتمادا على قاعدة الاستنتاج، و يحتاج القارئ إلى العديد من الإجراءات، لإيجاد هذا النوع من الترابط و استرجاعه وفق عناصر منطقية كالسببيّة و العموم و الخصوص، و معلومات عن تنظيم الأحداث و الأعمال و المواقف، و السعي إلى التماسك فيما يتّصل بالتجربة الإنسانية[10].

و في هذا الصدد يؤكد (محمد خطّابي) أنّ المتلقّي يجب أن ينطلق من افتراضين من أجل اكتشاف انسجام النّص أو عدم انسجامه و هما:

1-لا يملك الخطاب في ذاته مقومات انسجامه، و إنّما القارئ هو الّذي يسند إليه هذه المقومات.

2- كل نصّ قابل للفهم و التأويل فهو نصّ منسجم و العكس صحيح.[11]

يفهم من هذا الّذي تقدّم حسب ما أكّده محمد خطّابي أنّ القارئ يعدّ في قلب عمليّة التواصل؛ بمعنى أنّ المتلقّي هو الّذي يحكم على نصّ بأنّه منسجم و على آخر بأنّه غير منسجم، و بالتالي يتحتّم

علينا أن نأخذ بعين الاعتبار دور القارئ و جهده التأويلي الّذي يبذله لربط أجزاء النّص دلاليا في الحكم على انسجام النّص و تماسكه.

و ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ المفسّرين القدماء قد اهتمّوا في دراستهم للقرآن الكريم بالعلاقات الدّلالية الرّابطة بين أجزاء النّص القرآني، و بالأبنية النصيّة الكبرى، التي تتجلّى فيها مظاهر الانسجام و الترابط النصّي، و هذا الارتباط "إمّا أن يظهر بينهما لتعلّق الكلام بعضه ببعض و عدم تمامه بالأولى واضح، و كذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد و التفسير أو الاعتراض و التّشديد..." [12]

و لا شكّ في أنّ التعامل مع النّص القرآني باعتباره نصّا لغويّا يجعلنا نتعامل معه على أنّه وحدة واحدة مترابطة تمتلك أسباب التفوّق و العلو عن النصيّات الأخرى، فالقرآن الكريم نزل متفرقا في أوقات و أماكن مختلفة حسب الأحداث و الوقائع، و مع ذلك يقال كالكلمة الواحدة، و لهذا نجد المفسّرين و علماء القرآن قد اهتمّوا بتماسك النص القرآني و انسجامه و ذلك بتوظيف مصطلحات و آليات تنتمي إلى مجال التماسك النصّي.

و بالتالي فتحليل أيّ نص و وصف انسجامه يستدعي وجود مجموعة من المظاهر و الآليات التي تساهم في تحقيق الانسجام، نجملها في المخطط الآتي:

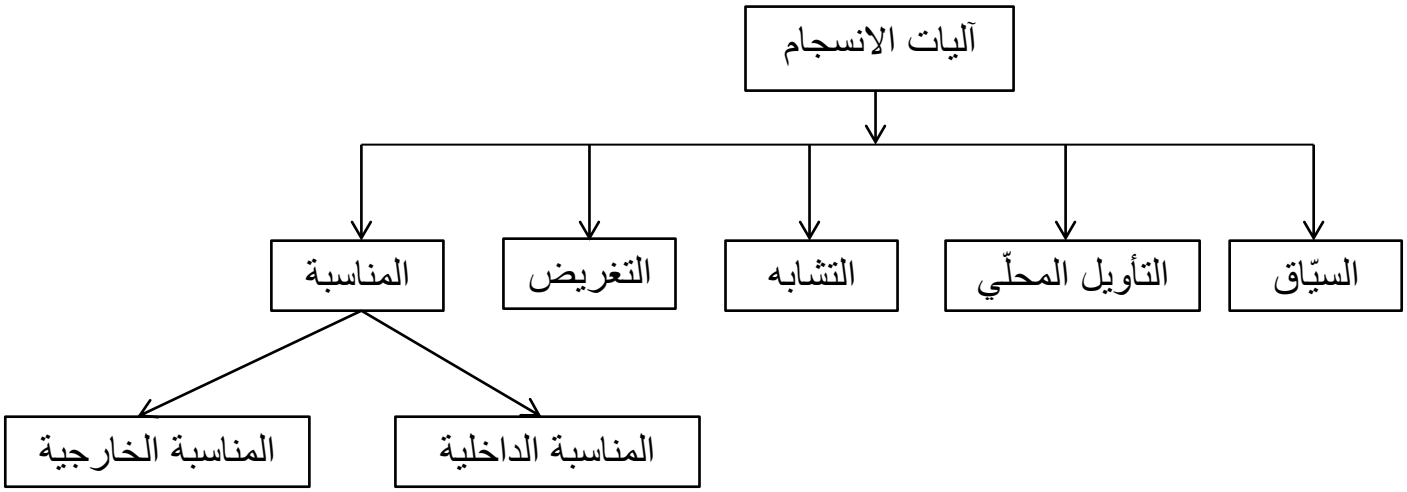

1. السيّاق:

لقد اهتمّ علماء اللّغة منذ القدم بالسيّاق و اعتبروه من أهمّ العوامل الّتي تسهم في عمليّة الانسجام النصّي، و هذا من خلال مقولتهم الشهيرة "لكلّ مقام مقال" فانطلقوا في مباحثهم من فكرة ربط الصياغة بالسيّاق، و أصبح مقياس الكلام في باب الحسن و القبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به، أي مقتضى الحال[13]؛ بمعنى لا يكون الكلام منسجما إلاّ إذا كان مناسبا و موافقا للظروف التي قيل فيها.

إنّ للسيّاق دورا أساسيا في ترابط النص القرآني و انسجامه، انسجاما يجعل آي القرآن مرتبطا "بعضه ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متّسقة المعاني منتظمة المباني"[14]. و يكون السيّاق القرآني

مكوّنا من ثلاثة عناصر أساسية تميّزه عن باقي السيّاقات بمزيد من الخصوصيّة و الانفراد لارتباطه بالقرآن الكريم، و هذه العناصر هي:

الأغراض و المقاصد الّتي بُني عليها النّص.

النظم و الأسلوب القرآني المؤتلف من مجموع الكلام و التعبير فيه.

الأسباب و الأحوال التي نزلت فيها الآية، و تنوّع المخاطبين بها.

فقد اجتمعت في هذه العناصر الأغراض إلى جانب القرائن اللّفظية المستمدّة من النظم بالإضافة إلى القرائن الحالية و الّتي مرجعها أسباب النزول و أماكنه، و هي مكونات كلّها راجعة إلى عموم معنى السيّاق و عناصره الأساسية العامة.

و ممّا أشار إليه الزركشي أنّ أفضل و أحسن طريقة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن[15]، و تعدّ هذه الملاحظة بمثابة الإشارة إلى منهج قويم في علم الدّلالة، و هو اليوم يعرف بالمنهج السيّاقي، و قد توزّع مفهوم السيّاق و شمل عدّة مناحي تجمّعت كلّها في كتاب البرهان و منها:

1. المنحى اللّغوي:

ذكر الزركشي أنّ دلالة السيّاق من الأمور التي تعين على المعنى عند الإشكال، فهي ترشد إلى تبيين المجمل، و القطع بعدم احتمال غير المراد، و تخصيص العام، و تقييد المطلق، و تنوّع الدّلالة و هذا ما ورد في قوله تعالى: " ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" (الدّخان 49) فالسيّاق عنده هو من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظيره، و غالط في مناظراته، و السيّاق هنا يدلّ على أنّه الذليل الحقير[16].

فقد عبّر الزركشي بدلالة السيّاق اللّغوي على ما ينتجه التركيب اللّفظي للآية الكريمة من دلالات تتضمن قرائن نصيّة (اللّفظية و المعنوية)، حيث ربط السيّاق بالجانب اللّغوي، و استعمله لفظا عاما صريحا في كتابه البرهان، إلاّ أنّ بعض المفسّرين و علماء القرآن استخدموا عبارات مرادفة لمعنى السيّاق منها: نظم الآية، روح الآية، ظاهر الآية، ملاءمة الكلام، نسق الآية، الإطار العام، المعنى العام... و غيرها، و هذه المصطلحات كلّها معتمدة على مرجعيّة نصيّة تصبّ في مدلول السيّاق.

و يعلّل الزركشي في حديثه عن تفسير القرآن، أنّ طريق التوصّل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب و مدلولاتها و استعمالها بحسب السياق، و هذا ما أشار إليه الرّاغب في كتابه "المفردات" في تفسير مدلول اللّفظ القرآني باقتناصه من السيّاق[17].

كما أشار الزركشي في دلالة السياق على نظم الآي في حديثه عن بعض الحكم التي تعلّل أخذ بعض الآيات المسببة ترتيبا و تموضعا معينا، حيث يقول: "و قد تنزل الآيات على الأسباب خاصة، و توضع كلّ واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن و حسن السيّاق" [18]. فدلالة العطف هنا هي من باب التكرار بالمرادف، واتصاف السيّاق بالحسن لا يتأتّى إلاّ من خلال نظم الآيات، فأصبح النظم و السيّاق بمعنى واحد.

و ذكر الزركشي في أقسام معنى الكلام دلالة السيّاق على القرينة في موضع الأمر لقوله تعالى " وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ" (البقرة:233)، فإنّ السيّاق يدلّ على أنّ اللّه تعالى أمر بذلك لأنّه خبر" [19] بمعنى انّ هذه الدلالة البلاغية استفادت من القرينة العقلية الّتي هي ذاتها السيّاق الخبري للآية.

و يذكر صاحب البرهان دلالة السياق على فحوى الكلام في حديثه عن موضع حذف "الياء" أنّه مرتبط بالهداية الملكوتيّة الباطنة في قوله تعالى: " وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا " (الكهف : 24) و مردّ ذلك أنّ : "سياق الكلام في أمور محسوسة، و الهداية فيه ملكوتية" [20]. فدلالة الآية توحي بالنهي عن المراء و الاستفتاء و التوصية بعدم نسيان التوكّل على اللّه و الاكثار من الذّكر و كلّها أمور محسوسة مرتبطة بالنوع المذكور من الهداية، و هذا ما يناسب حذف الياء.

و انطلاقا من هذا التصوّر يمكن أن نقول إنّ المنحى اللّغوي لمصطلح "السيّاق" ظهر بوضوح في التفسير، الّذي يعدّ أولى الدراسات التحليلية التي خضع لها النصّ القرآني، و الزركشي واحد من المفسرين الذين ساروا عن هذا النهج حيث أسهم هذا السياق في إدراك تماسك النص و انسجامه.

2. المنحى غير اللّغوي:

و يتمثّل في ظروف الخطاب و ملابساته الخارجية و الّتي تشتمل على الطبقات المقامية المختلفة المتباينة التي ينجز ضمنها الخطاب، و يشمل ذلك الزمان و المكان و حال الأشخاص و المخاطبين[21]، و هذا النوع يشتمل على القرائن الحالية التي تسهم في الكشف عن انسجام النصّ و تناسقه.

و قد اهتم علماء العرب القدامى بفكرة السيّاق و أهميّة الظروف المحيطة بالكلام فلجأوا إليه ليفسّروا القرآن الكريم، و جعلوا توضيحه جزءا من تفسير الآيات القرآنية [22]، فاهتموا بما تعلّق بمحيط النّص أو ما نسمّيه بسياق الحال، و تجلّى ذلك في حديثهم عن أسباب النزول، و المكّي و المدني مع مراعاة أحوال المخاطَب و غرض المتكلم.

و يرى صاحب البرهان أنّ علماء التفسير قد نظروا إلى كتاب اللّه و تطرّقوا إليه من جهة التفسير، مع مراعاة حياة الشريعة و ظروف أهلها و هذا يعود لكونه علما يعرف به فهم كتاب اللّه المنزّل على نبيّه محمّد صلّى الله عليه و سلّم، و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حكمه، و استمداد ذلك من علم اللّغة و النحو و التصريف و علم البيان و أصول الفقه و القراءات، و يحتاج لمعرفة أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ[23].

هذا يعني أنّ الزركشي اهتمّ بدراسة السيّاق اللّغوي للنّص (القرآني) و بإمكانية فصل العناصر المحيطة بالنزول (الأسباب و الظروف) أو ما يعرف بسياق الحال، أي جعل السيّاق بنوعيه أساسا للتحليل النصّي؛ حيث أنّ عدم الإحاطة بالسيّاق تقطع تواصلية الخطاب و انسجامه، و بالتالي فإنّ الانسجام النصّي يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياقات المختلفة، سواء الداخلية أو الخارجية، تشترك و تتظافر مع غيرها من أدوات التماسك لتحقيق النصيّة.

و لنا أخيرا أن نوضّح التوزّع المفهومي للسيّاق في كتاب البرهان من خلال المخطط الآتي:

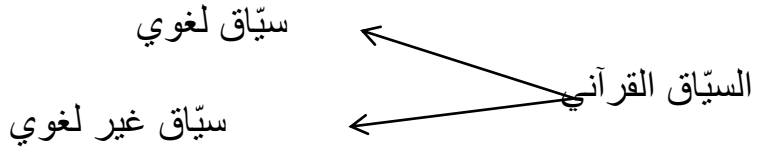

2. المناسبة:

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه من أدوات تحقيق الانسجام و التماسك النصّي في الخطاب القرآني هو مظهر المناسبة بتشكلاته المختلفة، فالمناسبة تأتي ضمن الآليات المهمّة التي يؤسّس من خلالها لتحقّق الانسجام و التوافق الدّلالي بين أجزاء النّص القرآني، فهي من أبرز علوم القرآن التي يستعين بها المفسّر في فهم القرآن الكريم، حيث جاء في البرهان أنّ علم المناسبة فائدته "جعل أجزاء الكلام، بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط و يصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء." [24] فهو إذن يبحث في كيفية تماسك النصوص و انسجامها و ذلك بترابط و تعالق وحداتها النصّية.

لقد تعدّدت تشكّلات المناسبة في النّص القرآني تبعا لتعدّد مواضيع السور داخل الخطاب القرآني، حيث استطاع الزركشي أن يلتمس وجها آخر للإعجاز عن طريق التماسك بين الآيات و السور. و قد خصّص بابا مستقلا في كتابه "البرهان في علوم القرآن" تحدّث فيه عن التماسك و الانسجام بين الآيات و السور و الآليات التي تحكم ذلك التماسك، فارتبطت السور بعضها ببعض برباط خارجي، و ارتبطت الآيات داخل هذه السور على اختلاف مواضيعها برباط داخلي.

و لتوضيح ما سبق نسوق بعض النماذج النصيّة من سور القرآن الكريم، و الّتي أشار إليها الزركشي في كتابه لبيان دور المناسبة في تحقق الانسجام الدلالي و التوافق في السياق المفهومي للنص القرآني، لذلك سنكتفي بإبراز نوعين في المناسبة:

أ- وجه المناسبة بين اسم السورة و مضمونها:

يعتبر اسم السورة العتبة الأولى لعنوان النّص لدى المتلقّي، فقراءة أيّ نصّ في ظلّ عنونته يشكّل الانطلاقة الأولى لقراءته، و من أجل ذلك يتحتّم على العنوان أن يحتوي على علاقة ما بمحتوى السورة [25]، حتى يكون له دورا في الترابط أو الانسجام النصّي فيها، و لهذا نبّه علماؤنا القدامى إلى أهمية العنوان أو اسم السورة.

و فيما يخصّ سور القرآن الكريم فنحن نبحث في العلاقة بين اسم السورة و محتواها، خصوصا إذا علمنا أنّ أسماء السور في النّص القرآني توقيفي، فيذهب الزركشي إلى تسمية السورة باسم معيّن "ليس إلاّ تعضيدا لتقليد معلوم لدى العرب، و هو تقليد يراعي في كثير من المسمّيات أخذ بأسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصّه...و يسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، و على ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة النساء بهذا

الاسم لِمَا تردّد فيها من كثير من أحكام النّساء، و تسمية سورة الأنعام لما وَرَدَ فيها من تفصيل أحوالها، و إن كان قد وَرَدَ لفظ الأنعام في غيرها...و كذا سورة المائدة لم يرِد ذكر المائدة في غيرها فسمّيت بما يخصّها." [26]

و لنأخذ على سبيل المثال العلاقة بين اسم سورة الكهف و محتواها، فإنّ اسم السورة توقيفي؛ أي ثابت عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، فقد اقترنت بالمكان الّذي تمّ اللّجوء إليه (الكهف) من أجل الاحتماء به من ظلم قومهم خوفًا من الوقوع في الفتنة، فلجأوا إلى مكان حصين يحفظ عليهم دينهم و عقيدتهم فكان هذا الكهف سببًا من أسباب سلامة أهل الإيمان (الفتية) من بطش الكافرين و فتنتهم، و كان التمسّك بالكتاب يعتبر بمثابة الكهف الّذي يحقّق السلامة من فتن الحياة الدنيا، فظهر بذلك مدى انسجام محتوى السورة و تعالقها و ارتباطها باسمها.

و من هنا نستنتج من أقوال الزركشي أنّ هناك ارتباطا وثيقا بين السورة و اسمها، و يعدّ العنوان بالباب أو العتبة الّتي منها يُدخل إلى النّص فضلا عن دوره في التحديد و التمييز بين النصوص و السور.

ب- وجه المناسبة بين فواتح السور و خواتمها:

تحدّث الإمام الزركشي عن مناسبة فواتح السور و خواتمها، و حاول إيجاد روابط عامة بين السّور، إذ يقول: "تأمّل سورة القصص و بداءتها بقصة مبدأ أمر موسى و نصرته، لقوله: " فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ " (القصص : 17)، و خروجه من وطنه و نصرته و إسعافه بالمكالمة، و ختمها بأمر النبيّ صلّ الله عليه و سلّم بألاّ يكون ظهيرا للكافرين، و تسليته بخروجه من مكّة و الوعد بعودته إليها بقوله: " إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ " (القصص: 85) [27].

يبيّن الزركشي وجه المناسبة بين فاتحة السورة و خاتمتها في تشابه قصّة موسى مع الرّسول صلّى الله عليه و سلّم في أنّ الاثنين خرجا من وطنيهما ثمّ نصرهما الله عز و جلّ و عادا مرّة ثانية، و أنّ الله قد نهى موسى أن يكون ظهيرا للمجرمين، و نهى رسوله بألاّ يكون ظهيرا للكافرين، و هذه الأحداث يظهر فيها وجه الانسجام في شأن مناسبة فاتحة هذه السورة لخاتمتها.

الخاتمة:

نخلص في نهاية هذا التّطواف الوجيز بالوصول إلى جملة من النتائج نذكر منها:

يعدّ الانسجام النصّي من أهمّ معايير النصيّة التي اشترطها اللّغويون لوصف النصّ بالترابط و التّلاحم، لذا تشغل آلياته مكانة هامّة في تلقّي النّص و إنتاجه، سواء على الصّعيد الدّاخلي أو المقامي.

إنّ الإمام الزّركشي يتجلّى جهده واضحا في كتاب "البرهان" في توظيف مصطلحات نصّيّة من أجل الكشف عن آليات الانسجام النصّي و جماليات القرآن الكريم.

جعل الزّركشي السيّاق بنوعيه أساسًا في ترابط النّص القرآني و انسجامه، انسجاما يجعل آيات القرآن مرتبطة بعضها ببعض.

قدّم الزّركشي في المناسبة آليات و أدوات استطاعت أن تبرهن على الوحدة النصّيّة للقرآن الكريم.

المناسبة علم من علوم القرآن تعنى بالكشف عن الروابط بين آيات القرآن الكريم و سوره من أجل إبراز وحدة النصّ القرآني، فهي تعمل على تحقيق الانسجام و الالتحام بين عناصره.

الهوامش:

1 - خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النّص و السياق، جدار للكاتب العالمي، عمّان، الأردن، ط1، 2008، ص 22.

2 - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللّغة النصّي بين النظرية و التطبيق، دار قباء القاهرة، ط1، 2000، ص56.

3 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج2، 1956، ص 1762-1763.

4 - ينظر: جلال مصطفاوي، الانسجام النصّي و علاقاته (النظرية و التطبيقية)، مجلّة المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد 39، 2018، ص 187.

5 - ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللّغة النصّي، ص95.

6 - نعيمة سعدية، لسانيات النّص و الخطاب الشعري، دراسة في شعر محمد الماغوط، الوسام العربي للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2015، ص 292.

7 - فان دايك، النّص و السّياق، تر: عبد القادر فنيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص 137.

8 - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس/آب، 1992 م، ص 239-240.

9 - محمّد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، ط2، 2006، ص 06.

10 - نعيمة سعدية، المرجع السابق، ص 293.

11 - محمد خطابي، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 52.

12 - بدر الدين الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تر: أحمد بن علي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2015، ج1، ص38.

13 - خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النّص و السيّاق، ص 54.

14 - مصطفي صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ضبطه محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط5، 1952، ص 270.

15 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المصدر السابق، ج2، ص127.

16 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 144.

17 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 125.

18 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 27.

19 - المصدر نفسه، ج2، ص 221.

20 - المصدر نفسه: ج1، ص 292.

21 - بن يحيى طاهر ناعوس، تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، دار القدس العربي، وهران، 2014، ص 217.

22 - ينظر: أبو الفرج محمّد أحمد، المعاجم اللّغوية في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث، دار النهضة العربية، ط1، ص 98.

23 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 20.

24 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 35.

25 - ينظر: لطفي فكري محمد الجودي، جمالية الخطاب في النّص القرآني، قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية و آليات التكوين، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص 222.

26 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 208.

27 - بدر الدين الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 144.